الحلقة السابعة

(1) (مشهد ساحة المدرسة الحربية.. زمرة من ضباط الصف الأخير الذين جاءتهم دعوة إلى الحفل في القنصلية الألمانية ومعهم بعض من دعوا إلى مسرح ويمر في الصيف الماضي)

تلميذ ضابط أول: أتترك يا محسن فتاة تسبقك وأنت أفضل فرساننا في العام الماضي، كنت تتقدم الصفوف فماذا جرى لك في الشوط الأخير؟

محسن: عندما شاهدت شهربان تتقدمني تخاذلت قوتي وما عدت أرغب في منافستها، فهي الفتاة الوحيدة في المدرسة وهي فرصتها الأولى، وقد تكون الأخيرة، أما أنا فستكون لي فرص أخرى عندما أتابع دراستي في الخارج..

ضابط متخرج ثاني: محسن يعشق شهربان، ولكن المسكين لا يتاح له إلا النظر من بعيد..

محسن: (غاضبا) إياك أن تخوض في مثل هذا الحديث وإلا لقيت مني ما لا تشتهيه.

الضابط نفسه: إنني أشفق عليك، وأريد أن أخلصك من حب لا أمل فيه.. أتريد أن تجعل من نفسك ضحكة كما فعلت في ويمر؟ إن شهربان لا تشعر بوجودك لأنها منذ صغرها مخطوبة لقريب لها من جهة أمها.. أمي صديقة لأم خطيبها، وأنا أكاشفك بالحقيقة كي لا تزرع في نفسك أوهاما، تعذبك خيبتها..

تلميذ ضابط ثاني: ألهذا تحبس نفسها في غرفة الدرس ولا تخرج في الاستراحات أبدا؟

تلميذ ضابط ثالث: إنها تفعل ذلك خوفا من لسان مدرس الديانة، فهي لا ترغب أن تثير حملته عليها بمخالطة الشباب..

تلميذ ضابط رابع: والله إنني أحترم هذه الفتاة.. إن غايتها العلم وليس اقتناص قلوب الشباب..

تلميذ ضابط خامس: إن مدرس الديانة سيثير زوبعة حول وجودها في المدرسة وخصوصا بعد أن اشتركت في سباق الخيل وكان لها الفوز.. إنه يريد أن يوصل الأمر إلى شيخ الإسلام والصدر الأعظم وربما إلى السلطان نفسه.. إنه يقول بأن ما يجري في المدرسة غير مقبول لا من العرف ولا من الإسلام.

تلميذ ضابط سادس: هل لاحظتم أن من شهد السباق لهذا العام كان شيخا معمما، وأن علي باشا لم يدع رجال الصحافة ولم ينشر خبره في الصحف؟

(2) (مشهد قصر علي باشا.. شهربان تتهيأ لحضور الحفل.. على سريرها أثواب تقارن ما بينها.. تدخل الأميرة شمس الدنيا تحمل صندوق مجوهراتها)

الأميرة: ماذا سترتدين للحفل؟

شهربان: والله محتارة يا أمي.. قلت لنفسي بما أن جميع النـساء المدعوات سيرتدين الزي الأوروبي فسألبس أنا الثـوب الأزرق الـذي أهدانيه القنصل..

الأم: كوني متميزة بلباسك التركي فهو أوقع في النفس..

شهربان: لا أجد بينها ثوبا لائقا للحفل..

الأميرة: تعالي معي إلى غرفتي.. لدي مجموعة من الثياب التي ظهرت فيها في يوم عرسي.. كنت في مثل سـنك وقامتـك ولكننـي سرعان ما سمنت ولم أهنأ بها.. إنها جديدة كأنها وصلت البارحة من يد الخائطة، فاختاري منها ما يناسبك.. وهذا صندوق مجوهراتي فتزينـي بما يحلو لك.. (تخرج الأم وشهربان إلى الدائرة الخاصة بالأميرة)

(3) (مشهد خارجي للقنصلية.. تقف عربات وينزل منها الضباط وزوجاتهم)

(4) (مشهد داخلي للصالة.. معرض أزياء ألمانية.. النساء يرفلن بتنانير فضفاضة طويلة وكشاكش وقبات عالية أو واسعة عند الـصدر، وألوان قوس قزح.. ضباط في بزات سوداء رسمية وعقد ملونة علـى شكل فراشات.. أحاديث بالألمانية والتركية.. حلقات وضحكات عالية.. يدور خدم بالأشربة.. القنصل الألمـاني وزوجتـه وبعـض أعـضاء القنصلية يقفون عند الباب لاستقبال الضيوف.. يدخل حاجب ويعلن عن قدوم علي باشا ضيف الشرف وابنته.. يحتفي بهما القنـصل وزوجتـه احتفاء خاصا.. يسود الصالة الـصمت.. العيـون تـشرئب لمـشاهدة شهربان بلباسها الشرقي الفاخر.. ثوبها من المخمل اللازوردي المطرز عند الصدر والأكمام بخيوط الذهب.. قوام فتان، على رأسها تاج ذهبي مرصع بالماس.. ينحسر اليشمق عن قرطيها الطويلين الماسيين.. علي باشا في ثياب تركية.. على صدره الأوسمة وفوق رأسـه الطربـوش المغربي ذو الشرابة الطويلة)

بهجت: (واجما لمرأى شهربان.. تمر به مع والـدها دون أن تنتبه إليه..

زوجته: من هذه الفتاة؟

بهجت: إنها ابنة خالتي شهربان وهي ابنة علي باشـا مـدير مدرستنا الحربية..

الزوجة: هل هي متزوجة أم عزباء؟

بهجت: إنها كانت مخطوبة لي منذ الصغر، ولكنني حين ذهبت إلى المانيا وشاهدت هذا الجمال الرائع نسيت نفسي..

الزوجة: إن جمالها متميز ببشرتها البيضاء وشعرها الفاحم السواد.. (يمر خادم يحمل صينية فيها كؤوس الشراب.. يتناول بهجت شراب التوت وزوجته شراب البرتقال.. يرشفان على مهل)

بهجت: ولكنني أحب الشقراوات..

الزوجة: ألهذا لم تستقبلني والدتك بحفاوة؟ إنني ألاحظ أنها ترسل طعامنا إلى غرفتنا وكأننا في فندق، وتتحاشى لقائي..

بهجت: (باسما مهونا عليها) هذه عاداتنا لأنك لا تزالين عروسا..

الزوجة: وإلى متى أبقى عروسا؟

بهجت: حتى ينقضي شهر العسل..

الزوجة: بودي لو أكسب صداقتها ورضاها.. إنني أشعر بغربة في القصر، كأنما لست مرغوبا بها..

بهجت: لا أحد في القصر يعرف الألمانية، لا أمي ولا أبي ولا الجاريات..

الزوجة: هل سأعيش معك في القصر؟ ألن يكون لي بيت مستقل؟

بهجت: القصر واسع، ولي جناح خاص فيه.. ولي أخوان غائبان.. واحد في تونس والآخر في العراق..

الزوجة: ماذا يفعلان هناك؟

بهجت: واحد مشرف عام والآخر وال..

الزوجة: اسع في رتبة تكون فيها خارج البلد ليكون لنا منزل خاص..

بهجت: إن أخوي لا يحسدان على رتبهما.. ففي تونس تعم المجاعة، حتى أن الناس أخذت تقتات الحشائش والجذور ولحم البشر، وانتشرت الكوليرا، وعمت الانتفاضات.. وأعلنت حكومة الباي إفلاسها.. وفي العراق تكثر المؤامرات.. فهل تحبين أن تهجري القصر والنعم التي أنت فيها لتسكني في بيت مستقل؟ أنا لو عرضت علي أية رتبة خارج استنبول لما قبلتها.. أريد أن أبقى قريبا من السلطان.. فما تقولين؟ (تصمت)

(5) (تتوجه الكاميرا إلى حلقة علي باشا والقنصل.. يتحادثان في الوضع السياسي.. القنصل يحذر علي باشا من نوايا الإنجليز لاحتلال قناة السويس)

القنصل: إن المشروع الذي نفذه ديلسبس لن يتركه الإنجليز للفرنسيين.. فهو طريق بحري مختصر يصلهم بمستعمراتهم في الهند.. سيصبحون سادة البحر المتوسط كما هم سادة الأطلسي والهندي.

علي باشا: مصر تسير من سيئ إلى أسوأ منذ انفصالها عـن الدولة العلية..

القنصل: إن الخديوي إسماعيل ينوي بيع حصته والحـصص التي لروسيا وأميركا لهم فيصبح لهم حوالي نصف الأسهم، وللفرنسيين الباقي..

علي باشا: كيف يفعل الخديوي إسماعيل هذا؟ مصر قـدمت الأرض والعمال والضحايا ومقالع الحجارة، والتزمت بمد الترعة مـن النيل إلى السويس.. أتخرج من هذا المشروع صفر اليـدين، وتـصبح الأسهم مقاسمة بين الفرنسيين والإنجليز؟

القنصل: إن إنجلترا دفعت مالا ثمن الأسهم التي اشترتها.. أما فرنسا وهذا الأفاق الكبير ديلسبس، فإنه لم يقدم سوى الخبـرة وبعـض الفنيين يوم بدأ في شق القناة قبل عشر سنوات.. أمـا ذلـك الأحمـق الخديوي سعيد الذي اشترى حصته بالاقتراض من المـصارف لتنفيـذ المشروع على أمل المتاجرة به، فإن وريثه الخديوي إسماعيل تـورط بسببه بديون أعجزت مصر بفوائدها فاضطر أن يبيع حصته للإنجليز، ومعها حصص مصر الأخرى من المشروع.

(6) (شهربان وزوجة القنصل تتحدثان معا بانسجام)

زوجة القنصل: إنك تتحدثين الألمانية جيدا..

شهربان: كنت في السابعة من عمري عندما أحضر والـدي مربية ألمانية إلى القصر لتعلمني اللغة.. كانت ترافقني وتقـرأ علـي قصص الأطفال.. كم كانت تفرحني تلك الكتب الأنيقـة ذات الـصور الملونة.. كنت أتعلم اللغة من الصور والقراءات والمـشاهدات حتـى أصبح لدي ثروة من المفردات جعلت تعلمي القراءة والكتابة فيما بعـد أمرا سهلا..

زوجة القنصل: لو كنت ترتدين ثوبا غربي الطراز لما ظننت إلا أنك من بنات بلادنا.. إن زوجة قنصل تركيا في ألمانيا لا تعـرف الألمانية، ولقد زرتهم مرة مع زوجي فما أحببت تلـك الزيـارة، لقـد أعطتني انطباعا عن تزمت نساء الشرق، ولذلك لم أحـضر مـسرحية فاوست مع زوجي في ويمر.. (القنصل يسمع العبارة الأخيرة من كلام زوجته.. يذكر أمرا)

القنصل: (إلى علي باشا) إن مغنية الأوبرا جرترود ستشرفنا الليلة..

علي باشا: حقا! هذه مفاجأة سارة لم أكن أتوقعها..

شهربان: تفضلي زورينا في منزلنا مع زوجك الكريم..

زوجة القنصل: أنا في الواقـع لا أحـب كثيـرا الأحاديـث السياسية ولذلك لا أرافق زوجي في زياراته حيث أجلس كالبلهاء أحملق في الوجوه وعقلي شارد في الشؤون الصغيرة التي تهمنا نحن النساء..

أما حين أدعى إلى مكان تحسن نساؤه لغتي فإنني أرحب به.. (يقترب بهجت وزوجته من شهربان)

بهجت: (سأعرفك على ابنة خالتي شهربان (شهربان تسمع خلفها من يناديها.. تلتفت.. تشاهد بهجت وزوجته)

شهربان: (بعاطفة أخوية) آه بهجت أيها الشقي مبارك زواجك! (تسلم على زوجته بحرارة) إن زوجتك رائعة الجمال ولعلك لا تستأهلها.. إنك كعادتك تحسن دائما اختيار الأفضل والحظ يحالفك (إلى زوجة القنصل) ابن خالتي بهجت (بهجت يصافح زوجة القنصل)

بهجت: تشرفنا.. زوجتي أنجه من فرانكفورت (الزوجة تسلم على زوجة القنصل)

زوجة القنصل: حضرت حفل زواجك في كنيسة فرنكفورت.. أتمنى لك السعادة، وأن تنجبي للضابط بهجت البنين (إلى بهجت) كم تبهجني هذه العلاقات الوثيقة بين بلادينا!

(7) (الحاجب يهمس في أذن القنصل بأن عربة مغنية الأوبرا جرترود قد وصلت.. يهرع القنصل إلى الباب..)

القنصل: (مرحبا بجرترود بانشراح كبير) خشيت أن يعيقك أمر عن تلبية الدعوة..

جرترود: إنني منذ الأمس في الآستانة أنزل عند صديقة لي..

القنصل: سيفاجأ علي باشا بقدومك..

جرترود: أفضل أن أرتاح قليلا في الداخل وأصلح مكياجي..

القنصل: سننتظرك إذا قبل أن نبدأ وليمتنا..

جرترود: أنا لا آكل شيئا قبل الغناء..

(يفتح باب على مصراعيه فتظهر قاعة الطعام تتوسطها مائدة بستة أمتار عليها أصناف مختلفة من الأطعمة الشرقية والغربية.. زوجة القنصل تدعو علي باشا وشهربان اللذين يتقدمان الصفوف.. زوجة القنصل تساعد علي باشا في اختيار الألوان الغربية والقنصل يساعد شهربان.. يستدير المدعوون بالمائدة، كل زوجين معا، ثم يأتي في المؤخرة الضباط العزاب.. يملأ كل واحد صحنه حسب رغبته ويخرج.. يشكلون حلقات كل مجموعة معا.. صف الضباط العزاب يتحلقون معا.. تنفرط الحلقة حين يتعرف أحدهم على آخر)

صف ضابط : (يشاهد بهجت وزوجته.. يتقدم منه) الضابط بهجت أليس كذلك؟

بهجت: نعم

صف ضابط: التقينا في ويمر في الصيف..

بهجت: أذكر ذلك..

صف ضابط: أنا حكمت الخازندار وأمي صديقة والدتك. الكريمة..

بهجت: آه.. (يتصافحان.. إلى زوجته) صديقي حكمت الخازندار.. زوجتي أنجة.

حكمت: مبارك زواجكما (يصافح أنجة)

بهجت: تعال أعرفك على ابنة خالتي شهربان..

حكمت: أكون سعيدا لو فعلت ذلك.. فهي بالرغم أنها طالبة في مدرستنا فإننا لا نحادثها أبدا..

(في حلقة قريبة)

شهربان: (للقنصل) لاحظت أن فتياتكم ملؤوا صحونهن من الأطعمة الشرقية، وضباطنا من الأطعمة الغربية..

القنصل: هذا بداية الانسجام..

شهربان: إذا استمرأن أطعمتنا، فإنهن سيفقدن رشاقتهن خلال عام..

القنصل: (ضاحكا) إنهن سيفقدنها على أية حال.. فنساؤنا مثل النساء عندكم نهمات ولودات.. (ينضم بهجت وزوجته وحكمت إلى حلقة شهربان.. يعود القنصل للحديث مع علي باشا)

بهجت: (إلى شهربان) سأعرفك على صديقي حكمت الخازندار..

شهربان: (تتأمله قليلا) شاهدته في ويمر.. ألست أنت الذي كان يقوم بمغازلة فتاة الصالة بحركات بهلوانية؟

حكمت: (ضاحكا) كنت أفعل ذلك لأصرف أنظار رفاقي عن الحملقة بك فتكون وقعتنا سوداء مع علي باشا..

أنجة: (تشاهد إحدى صديقاتها من فرنكفورت) هذه كانت رفيقة دراستي في مدرسة فرنكفورت أون ماين الثانوية.. تلوح لها.. إلى بهجت) تعال لأعرفك عليها (ينفصل بهجت وزوجته من الحلقة)

شهربان: (إلى حكمت) هل والدي يخيفكم إلى هذه الدرجة؟

حكمت: وأكثر مما تتصورين.. وقفنا مرة بالشباك يقفز واحدنا على ظهر الآخر لنرى ماذا تفعلين، وأنت تحبسين نفسك في غرفة الدراسة.. فشاهدنا مدرس التاريخ الذي كان واقفا يحادثك عند الباب، فشكانا إلى علي باشا، فأمر بفلقة لكل منا عقابا لنا جعلتنا نحرم أن نكررها ثانية..

شهربان: (تضحك) أنا لم أدر بهذا..

حكمت: أنظري إلى رفاقي كيف يحملقون بنا ويحسدونني أنني وجدت طريقة لمحادثتك دون أن ينالني عقاب..

شهربان: ولكن دخولي المدرسة كان بعد ويمر.. فكيف عرفت بغيرته علي؟

حكمت: كان تقديري في محله.. إن علي باشا غيور على سلوك تلامذة مدرسته، وخشيت أن يحرمنا من الدراسة العليا لو بدر منا ما لا يليق.

شهربان: هل رفاقك الذين كانوا في ويمر هم من بين المدعوين الليلة؟

حكمت: إثنان منهم.. مراد وأنور.. إن مراد كان الفائز الثاني في السباق..

شهربان: أحب أن أتعرف إلى المجموعة التي تسابقت معها..

حكمت: (مشيرا إلى حلقة تضم ثلاثة) الآخرون ذهبوا ليملأوا صحونهم ثانية.. هل أدعوهم للانضمام إلينا؟

شهربان: أنا سأتعرف إليهم بنفسي..

(حلقة القنصل وعلي باشا)

القنصل: أريد أن أنبهك بأن ما جرى في مصر من الوقوع بالتبعية المالية للبنوك الفرنسية والإنجليزية نتيجة فتح قناة السويس يمكن أن يحدث لتركيا بمد السكك الحديدية.. المصارف لا ترحم.. يبدأ الاستعمار بالقروض، وينتهي بتدخل الجيوش لحماية القروض وفوائدها.. إن مصر بعد عشرة أعوام من قروضها تدفع اليوم 80% من مداخيلها لتسديد سندات الديون وفوائد القروض.. احتاجت مصر لترهن سكك الحديد العائدة لها، وضياع الخديوي، ومداخيل الضرائب..

علي باشا: أنا رجل عسكري لا أفهم كثيرا في قضايا المال، ولكنني سأبلغ مولانا بهذا الحديث فيرسل من طرفه خبيرا ماليا ليستفسر منك عن هذه القضايا..

القنصل: أنظر أية مفاجأة خلفك! (تتقدم جرترود بزينة وإشراق نحو المجموعة)

علي باشا: (مبهورا) يا سبحان الله!

جرترود: (تصافح علي باشا فيضغط يدها..) ها نحن التقينا ثانية (جرترود تصافح شهربان) كم أنت جميلة يا شهربان!) اشتقت لك..

شهربان: كيف حال هيلدا؟

جرترود: على حالها عند أبيها، ولقد دخلت دورة دراسية..

شهربان: ألن تزورنا مرة أخرى في الصيف؟ (علي باشا يسر من بادرة شهربان)

علي باشا: جرترود لن تضن علينا بزيارة هي الأخرى..

شهربان: (إلى والدها) أبي هل تأذن لي أن أنضم إلى حلقة رفاقي الذين شاركوني في السباق؟

علي باشا: (موافقا.. تذهب.. إلى جرترود) كم أنا بشوق إليك! إن لك عينين تفقداني صوابي وصوتا يوقد نارا في قلبي..

جرترود: (باسمة) لا تتحدث هكذا يا علي باشا، ولا تنس أننا في جمع..

علي باشا: أنا لا أرى أحدا إلا أنت.. أحببت السماء التي تشبه زرقة عينيك، وتغريد الكناري الذي يذكرني بصوتك..(ينظر إليها

بعاطفة لهفة) كم أحسد هؤلاء الضباط الذين فازوا بمحبوباتهم، وأتمنى لو يعود بي الزمن وأكون واحدا منهم.. (يسير وجرترود وينتحيان في طرف الصالة) أنا لم أتزوج عن حب ولم أعرف الحب إلا يوم رأيتك..

جرترود: آه علي باشا.. لاتعلق قلبك بمن لا تستطيع تحقيق أمنيتك.. أنا وهبت قلبي للفن.. هذا قدري.. تزوجت عن حب ولكنني لم أجده بعد الزواج.. فشلت حياتي الزوجية ولو كنت أكثر تواضعا لكنت في أسرتي وتخليت عن فني.. أنا لم أستطع أن أوفق بينهما.. إنني أدفع ضريبة فني عذابا مضنيا.. فلا تزد في عذابي..

علي باشا: لن تجدي رجلا قادرا على حبك مثلي..

جرترود: حتى ابنتي يتحجر قلبها نحوي، أبعث إليها بعشرة رسائل فتجيبني بواحدة أو لا تجيب..

علي باشا: يوم نزلت هيلدا في ضيافتنا كانت في سعادة غامرة.

جرترود: حدثتني في إحدى رسائلها القليلة عما لقيته في منزلكم الكريم من رعاية وحب..

علي باشا: لو أنك تستجيبين لرجائي لجمعت بينك وبين هيلدا في مكان واحد.. لو أنك تبادليني العاطفة التي أكنها لك لتزوجتك على سنة الله ورسوله وما أعفت فنك..

جرترود: علي باشا، كيف يخطر لك هذا؟ هل أغني في منزلي من وراء حجاب؟

علي باشا: لا، لا.. اختاري المكان الذي تحبين أن تعيشي فيه وسأشتري لك مسكنا نلتقي فيه.. ليكن بيننا العهد أن تكوني لي، وسيكون لنا أصدقاء مقربون يحفظون سرنا ويقربون بيننا..

جرترود: لا، لا، لا يمكن أن أقبل بمثل هذا الوضع..

علي باشا: فكري في الأمر.. فإن يكن لي في قلبك مكـان فلـن تتأخري علي بالإجابة.. لم يعد لي فسحة من العمر أنتظر فيها حبا بديلا بمثل العنف الذي يتغلغل في أعماقي نحوك.. (يعود القنصل وزوجتـه بعد أن يهيآ غرفة الطعام لتشكل مسرحا.. يفتح الباب فتظهـر مقاعـد مصفوفة.. في الصدر ستارة يختفي وراءها باب غرفة الطعام.. المائدة مفروشة بالسجاد تشكل منصة..درجان متحركان من الجانبين.. زوجـة القنصل تذهب بجرترود من الباب الخلفي.. القنصل يـدعو الحـضور لسماع مغنية الأوبرا المشهورة جرترود.. شهربان تنضم إلى والـدها.. يجلسان في مقدمة الصفوف، في الوسط على يمين علي باشـا زوجـة القنصل وعلى يسار شهربان مقعد القنـصل فارغـا.. يقـدم القنـصل جرترود التي تظهر على المسرح.. يشتد التصفيق)

(8): (منظور جرترود يرافقها عازف قيثار تغني مقطعا من أوبرا فاوست..)